أشكال السنن الاجتماعيّة وصِيَغها في القرآن الكريم -مدخل منهجيّ للقراءة السننيّة-

الشيخ لبنان حسين الزين[1]

ملخّص:

كشف القرآن الكريم عن أنّ التاريخ والاجتماع الإنسانيّ محكوم بسنن إلهيّة لا تتبدّل ولا تتغيّر، جارية ومستمرّة بين الناس، لا تستثني أحدًا منهم. وهذه السنن مؤطَّرة بقوانين واتّجاهات موضوعيّة حاكمة على حركة التاريخ والاجتماع الإنسانيّ؛ عبّر عنها القرآن الكريم بأشكال وصِيَغ متعدّدة؛ فتارة عبَّر عنها بصيغة قضيّة شرطيّة مكوّنة من طرفين يرتبطان بعلاقة شرطيّة يتحقّق بموجبها الطرف الثاني عند تحقّق الطرف الأوّل؛ كما في سنن التغيير، والتدافع، والنصر، ودمار المجتمعات وانهيارها، ووفرة الرزق، ...، وتارة أخرى عبَّر عنها بصيغة قضيّة علميّة حتميّة ثابتة لا تتخلَّف ولا تختلف؛ كما في سنن الاستخلاف، والتمكين، والابتلاء والامتحان، والتفاضل والتمايز، والتداول، وآجال الأمم، ...، وتارة ثالثة عَبَّر عنها بصيغة قضيّة ذي اتّجاه طبيعيّ قد تقبل مخالفة الإنسان لها على المدى القصير، ولكنّها حتميّة وقاهرة له في حال استمراره في مخالفتها على المدى المتوسّط والبعيد؛ كما في سنن ارتباط الإنسان بالدين، وحبّ الحقّ وبغض الباطل،

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، وأستاذ في جامعة المصطفى ﷺ العالميّة في لبنان.

والإقبال على الطيّبات والإعراض عن الخبائث، والارتباط بين الرجل والمرأة بعلاقة الزوجيّة، وتوزيع ميادين العمل بين الرجل والمرأة، ...

وبناءً عليه، فقد باتت القراءة السننيّة والوعي بها مطلبًا ضروريًّا، ولا سيّما في ما يتعلّق بأشكال السنن الاجتماعيّة التي طرحها القرآن الكريم بأساليب مختلفة وصِيَغ وتعابير متعدّدة؛ بوصفها مدخلًا منهجيًّا في القراءة السننيّة الواعية والفاعلة للاجتماع والتاريخ، وفي فهم التاريخ والواقع وتأتي هذه المقالة لتبيّن هذه السنن وأشكالها وصِيَغها ونماذج من تطبيقاتها المطروحة في القرآن الكريم، ولتؤكّد على أهمّيّة الوقوف عند أشكال السنن وصيَغِها التعبيريّة في القرآن الكريم؛ بوصفها مدخلًا منهجيًّا مهمًّا في فهم الواقع واستشراف المستقبل.

كلمات مفتاحيّة:

السنن الإلهيّة، القراءة السننيّة، التاريخ، الاجتماع، الصِيَغ، الأشكال، الشرط، القانون، الاتّجاه الموضوعيّ.

مقدّمة:

المتأمّل في النظام الجاري في الكون والاجتماع الإنسانيّ التاريخيّ يجده محكومًا بسنن إلهيّة تحكي تقديراته -تعالى- في خَلْقه، وهذه السنن جارية ومستمرّة في الخَلْق في كلّ زمان ومكان، لا تتبدّل ولا تتحوّل: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾[1]. وعن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «**فإنّ الدنيا ماضية بكم على سنن**»[2]، فلا تستثني هذه السنن من الناس أحدًا.

لذا، كانت معرفة الإنسان بهذه السنن الجارية في الخلق والوعي بخصائصها والاسترشاد بها لها بالغ الأثر والأهمّيّة في سلامة السير الكماليّ للإنسان ورقيّه الحضاريّ؛ فالعاقل هو من يقف عند هذه السنن بأشكالها وخصائصها ويتبصّر بها لحاضره ومستقبله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾[3].

وقد كشف القرآن الكريم عن أنّ الساحة التاريخيّة البشريّة عامرة بسنن إلهيّة، عبّر عن حقائقها بأشكال وأساليب مختلفة وبصِيَغ وتعابير متعدّدة؛ فتارة عبَّر عنها بصيغة قضيّة شرطيّة مكوّنة من طرفين يرتبطان بعلاقة شرطيّة يتحقّق بموجبها الطرف الثاني عند تحقّق الطرف الأوّل. وتارة عبَّر عنها بصيغة قضيّة علميّة حتميّة ثابتة لا تتخلَّف ولا تختلف. وتارة عَبَّر عنها بصيغة قضيّة ذي اتّجاه طبيعيّ قد تقبل مخالفة الإنسان لها على المدى القصير، ولكنّها حتميّة وقاهرة له في حال استمراره في مخالفتها على المدى المتوسّط والبعيد[4].

(1) سورة فاطر، الآية 43.

(2) العلوي، محمد بن الحسين (الشريف الرضي): نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام علي عليه السلام ورسائله وحكمه)، شرح: محمد عبده، ط1، قم المقدّسة، دار الذخائر؛ مطبعة النهضة، 1412هـ.ق/ 1370هـ.ش، الخطبة190، ص131.

(3) سورة آل عمران، الآية 140.

(4) هذا التقسيم طرحه الشهيد السيّد محمد باقر الصدر قدس سره (انظر: الصدر، محمد باقر: المدرسة القرآنيّة، ط2، لا م، دار الكتاب الإسلاميّ؛ مطبعة ستار، 1434هـ.ق/ 2013م، ص77، 81، 84).

وتأتي هذه المقالة لتبيّن هذه السنن وأشكالها وصِيَغها ونماذج من تطبيقاتها المطروحة في القرآن الكريم، ولتؤكّد على أهمّيّة الوقوف عند أشكال السنن وصيَغِها التعبيريّة في القرآن الكريم؛ بوصفها مدخلًا منهجيًّا مهمًّا في فهم الواقع واستشراف المستقبل.

ولكنْ قبل بيان ذلك، لا بدّ من الوقوف عند مدخل موجز لبيان ما يرتبط بالسنن على مستوى المفهوم والخصائص والمحدّدات؛ وفق ما بيّنه القرآن الكريم.

مدخل:

1. مفهوم السُنَن:

أ. السُنَن في اللغة:

السنن في اللغة مشتقّة من فعل سَنَّ؛ وهو جريان الشيء وإطراده في سهولة. ومنه اشتُقَّت السنَّة؛ وهي السيرة[1].

ب. السُنَن في القرآن الكريم:

وردت مفردة السُنَّة ومشتقاتها في القرآن الكريم في موارد عدّة؛ أُريد منها معنى جامع؛ وهو جريان أمور على تقديرات وضوابط مخصوصة ثابتة لا تتبدّل ولا تتغيّر[2]؛ ومن هذه الموارد؛ قوله تعالى:

- ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[3].

(1) انظر: ابن فارس، أحمد: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، لا ط، قم المقدّسة، مكتب الإعلام الإسلاميّ، 1404هـ.ق، ج3، مادّة «سنّ»، ص60-61.

(2) انظر: الأصفهاني، حسين (الراغب): مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط2، قم المقدّسة، طليعة النور؛ مطبعة سليمانزاده، 1427هـ.ق، مادّة «سنن»، ص429؛ المصطفوي، حسن: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ط1، طهران، مؤسّسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، 1417هـ.ق، ج5، مادّة «سنّ»، ص237.

(3) سورة الأحزاب، الآية 38.

- ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[1].
- ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[2].
- ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[3].
- ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[4].
- ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[5].
- ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾[6].
- ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[7].
- ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ﴾[8].

وسنن الله -تعالى- هي جريان أمره وحكمه وقضائه في خَلْقه؛ بظهور صفاته وأسمائه وأفعاله فيهم، على تقديرات وضوابط مخصوصة[9].

وبناءً على ما تقدّم سنتنتج أنّ سنن التاريخ هي مجموعة القوانين والاتّجاهات الموضوعيّة الإلهيّة الحاكمة على حركة التاريخ والاجتماع الإنسانيّ[10].

2. خصائص السنن الإلهيّة في القرآن الكريم:

إنّ البحث التفسيريّ الموضوعيّ في القرآن الكريم القائم على أساس

(1) سورة الأحزاب، الآية 62.
(2) سورة فاطر، الآية 43.
(3) سورة الإسراء، الآية 77.
(4) سورة الأنفال، الآية 38.
(5) سورة الحجر، الآية 13.
(6) سورة الكهف، الآية 55.
(7) سورة آل عمران، الآية 137.
(8) سورة النساء، الآية 26.
(9) انظر: المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، م.س، ج5، مادّة «سنّ»، ص237-238.
(10) انظر: الصدر، المدرسة القرآنيّة، م.س، ص40، 53.

المقارنة والموازنة بين الآيات التي تتعرّض للسنن وتطبيقاتها في القرآن، يكشف لنا عن خصائص تختصّ بها السنن الإلهيّة الجارية في التاريخ والاجتماع الإنسانيّ[1]؛ وهي:

أ. اضّطراد السنن واستمرارها وثباتها؛ فهي ليست عشوائيّة، بل طابعها الثبات والاستمرار والجريان؛ وفق قانون طبيعيّ له قواعده وشروطه التي لا تختلف ولا تتخلّف بحسب الموارد: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[2]، ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلٗا﴾[3]، ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾[4].

ب. عموم السنن وشمولها؛ فهي تشمل كلّ الناس في كلّ زمان ومكان، فلا يستثنى أحد منها: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾[5]، ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾[6].

ج. ربّانيّة السنن؛ فهي مرتبطة بالله تعالى؛ بوصفها كلماته التي أجراها في خَلْقه من منطلق وحدانيّته تعالى في تدبير أمور خلقه، ورجوع كلّ تدبير إليه، وعدم خروج شيء عن تدبيره: ﴿... سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورٗا﴾[7]، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[8]، ﴿... فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾[9].

(1) لمزيد من التفصيل، انظر: الصدر، المدرسة القرآنيّة، م.س، ص55-63؛ الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، لا ط، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، لا ت، ج2، ص181-182، 293-295؛ ج4، ص28-29؛ ج8، ص201؛ ج13، ص59-60؛ ج14، ص330-331؛ ج16، ص195-196؛ ج17، ص58-59؛ ج18، ص229؛ ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسيّة، 1984م، ج4، ص96-100؛ ج8، ص103-105؛ ج22، ص112، 337-338؛ ج26، ص183؛ ج8، ص21.

(2) سورة الأحزاب، الآية 62.

(3) سورة الإسراء، الآية 77.

(4) سورة الأنعام، الآية 34.

(5) سورة البقرة، الآية 214.

(6) سورة النساء، الآية 123.

(7) سورة الأحزاب، الآية 38.

(8) سورة الأحزاب، الآية 62.

(9) سورة فاطر، الآية 43.

د. اختيار الإنسان وإرادته الحرّة؛ فهي جارية في الخَلْق بنحو تنسجم صدور الأفعال منهم على نحو اختيارهم وإرادتهم الحرّة للفعل، وليست على نحو تسلبهم الاختيار وتجبرهم على أفعالهم. وطبعًا هذا لا يعني أنّ الإنسان باختياره وإرادته قد خرج عن أمر الله -تعالى- وقدرته، بل إنّ ما يختاره الإنسان من فعل وما يترتّب عليه من أثر هو بإذن الله -تعالى- ويرجع إلى تقديره وقضائه المحيط بجميع خلقه. غاية الأمر أنّ الإنسان له اختيار مصيره، ولكنّ اختياره سوف يترتّب عليه أثر ونتيجة لا تخرج عن أمر الله -تعالى- وحكمه[1]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2]، ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[3]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾[4].

3. محدّدات السنن الإلهيّة التاريخيّة:

من السنن الإلهيّة ما يتعلّق بعالم الطبيعة؛ كالقوانين الحاكمة على عالم المادّة؛ من قبيل: قانون الغليان، ومنها ما يتعلّق بحركة التاريخ الإنسانيّ؛ وهو السنن التاريخيّة. ولهذا القسم من السنن الإلهيّة ميدانه الخاصّ الذي تحكم فيه على الساحة التاريخيّة الإنسانيّة، وتختلف فيه ظواهرها وقوانينها عن سائر الظواهر والقوانين الكونيّة والطبيعيّة التي يحكمها علاقة سبب بمسبَّب، ونتيجة بمقدِّمات فقط، كظاهرة الغليان التي هي ظاهرة طبيعيّة محكومة بعلاقة السببيّة فقط؛ لارتباطها بظروف معيّنة عند تحقّقها يحدث الغليان. وأمّا السنن التاريخيّة فتحمل أبعادًا زائدة على ذلك؛ فالإضافة إلى كون السنن محكومة بعلاقة السببيّة؛ إلا أنّها خصوص السببيّة التي لها غاية وهدف، وتتجاوز ذات الفرد العامل إلى

(1) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص106-110؛ ج10، ص370-373.
(2) سورة الرعد، الآية 11.
(3) سورة الجنّ، الآية 16.
(4) سورة الكهف، الآية 59.

المجتمع. وعليه، فموضوع السنن التاريخية هو العمل الهادف الذي يشكّل أرضيّة ويتّخذ من المجتمع أو الأمّة أرضيّة له[1].

وبعبارة مختصرة، يمكن القول إنّ محدّدات السنن الإلهيّة التاريخيّة؛ هي:

- السببيّة
- الهدفيّة والغائيّة
- الاجتماعيّة

بعد هذا المدخل الموجز في مفهوم السنن وخصائصها ومحدّداتها، نشرع في البحث عن أشكال السنن وصِيَغها التعبيريّة في القرآن الكريم ونماذج من تطبيقاتها القرآنيّة.

أولًا: الشكل الأوّل «السنن الإلهيّة الـواردة في القرآن بصِيغة قضيّة شرطيّة»:

ورد في القرآن الكريم ذِكْر جملة من السنن التاريخيّة الجارية في الاجتماع الإنسانيّ وجرى التعبير عنها بصيغة قضيّة شرطيّة تربط بين حادثتين أو مجموعتين من الحوادث على الساحة التاريخيّة وتؤكّد العلاقة الموضوعيّة بين الشرط والجزاء، وأنّه متى ما تحقّق الشرط تحقّق الجزاء. وهذه صياغة نجدها في كثير من القوانين والسنن الكونيّة والطبيعيّة. فمثلًا: حينما نتحدّث عن قانون طبيعيّ لغليان الماء، نتحدّث بلغة القضيّة الشرطيّة، فنقول: إنّ الماء إذا تعرّض للحرارة وبلغت درجة معيّنة؛ وهي مئة درجة، وفي مستوى معيّن من الضغط؛ حينئذ سوف يحدث الغليان. فهذا قانون طبيعيّ يربط بين الشرط والجزاء، ويؤكِّد أنّ حالة التعرّض للحرارة، ضمن شروط معيّنة تُذكَر في طرف الشرط تستَتبع حادثة طبيعيّة معيّنة؛ وهي غليان هذا الماء. ومن الواضح أنّ هذا القانون الطبيعيّ لا

(1) لمزيد من التفصيل، انظر: الصدر، المدرسة القرآنيّة، م.س، ص67-75.

ينبّئنا بشيءٍ عن تحقّق الشرط أو عدم تحقّقه، ولا عن أنّ الماء أنّه سوف يتعرّض للحرارة أو لا يتعرّض لها، وهل إنّ درجة حرارة الماء ترتفع إلى الدرجة المطلوبة ضمن هذا القانون أو لا ترتفع؟ وإنّما ينبّئنا عن أنّ الجزاء لا ينفك عن الشرط، فمتى ما وُجِدَ الشرط؛ وُجِدَ الجزاء، فالغليان نتيجة مرتبطة موضوعيًّا بالشرط. ومثل هذه القوانين تقدِّم خدمة كبيرة للإنسان في حياته الاعتياديّة وتلعب دورًا عظيمًا في توجيه الإنسان؛ لأنّه بتعرّفه على هذه القوانين يصبح بإمكانه أنْ يتصرّف بالنسبة إلى الجزاء، ففي كلّ حالة يرى أنّه بحاجة إلى الجزاء يُعمِل هذا القانون ليحقِّق شروط هذا القانون، وفي الحالة التي يكون الجزاء متعارضًا مع مصالحه ومشاعره يحاول الحيلولة دون تحقيق شروط هذا القانون. لذا، كان القانون الموضوع على نحو القضيّة الشرطيّة بمثابة موجِّه عمليّ للإنسان في حياته. ومن هنا، تتجلّى حكمة الله -تعالى- في صياغة نظام الكون على مستوى القوانين وعلى مستوى الروابط المضطردة والسنن الثابتة؛ لأنّ صياغة الكون ضمن روابط مضطردة وعلاقات ثابتة هو الذي يجعل الإنسان يتعرّف على موضع قدميه وعلى الوسائل التي يجب أنْ يسلكها في سبيل تكييف بيئته وحياته والوصول إلى إشباع حاجته. فلو أنّ الغليان في الماء كان يحدث صدفة ومن دون رابطة قانونيّة مضطردة مع حادثة أخرى؛ كالحرارة، إذن، لما استطاع الإنسان أنْ يتحكّم بهذه الظاهرة، وأنْ يحقّقها متى ما كانت حياته بحاجة إليها، وأنْ يتفاداها متى ما كانت حياته بحاجة إلى تفاديها، فإنّما كان له هذه القدرة؛ باعتبار أنّ هذه الظاهرة وضعت في موضع ثابت من السنن الكونيّة، وطُرِحَت على الإنسان بلغة القضيّة الشرطيّة، فأصبح بإمكانه التبصّر بها وامتلاك الموقف تجاهها. والشيء نفسه نجده في عدد كبير من السنن التاريخية التي طرحها القرآن الكريم، فقد تمّت صياغتها على شكل قضيّة شرطيّة تربط بين حادثتين اجتماعيّتين أو تاريخيّتين، فهي لا تتحدّث عن الحادثة الأولى أنّها متى توجد؟ ومتى لا توجد؟، لكنْ

تتحدّث عن الحادثة الثانية أنّها متى ما وُجِدَت الحادثة الأولى؛ إذن وجدت الحادثة الثانية[1].

ومن نماذج هذه السنن الواردة في القرآن الكريم:

1. سنّة التغيير:

بيّن القرآن الكريم هذه السنّة التاريخيّة بصيغة القضية الشرطيّة في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[2]؛ حيث ربط بين تغييرين، بين تغيير المحتوى الداخليّ للإنسان، وتغيير الوضع الظاهريّ للمجتمع الإنسانيّ، ومفاد هذه العلاقة أنّه متى ما وُجِدَ ذاك التغيير في نفس الفرد وُجِدَ هذا التغيير في كيان المجتمع الإنسانيّ[3]. فإذا ما أرادت أمّة ما أن ترتقي إلى السعادة والحياة الكريمة، على أفرادها أن يُحدِثوا تغييرًا في أنفسهم على مستوى الفكر والعقيدة والأخلاق والقيم، لينتج عنه توافر البيئة المناسبة لإيجاد المجتمع الإنسانيّ السعيد الذي يحيا حياة كريمة. وإذا ما أرادت أمّة أن تحافظ على سعادتها وحياتها الكريمة؛ على أفرادها تجنّب التعرّض لتغيير سلبيّ على مستوى أنفسهم؛ بما لا يؤدّي إلى سلب الأمّة هذه النعمة الإلهيّة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[4].

2. سنّة التدافع:

عبّر القرآن الكريم عن هذه السنّة التاريخيّة الجارية في المجتمع الإنسانيّ بصيغة قضيّة شرطيّة تربط بين طرفين؛ الأوّل: وجود التدافع في الاجتماع الإنسانيّ، والثاني: امتناع الفساد في الأرض. قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا

(1) انظر: الصدر، المدرسة القرآنيّة، م.س، ص77-80.
(2) سورة الرعد، الآية 11.
(3) انظر: الصدر، المدرسة القرآنيّة، م.س، ص80؛ الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج2، ص181-185؛ ج18، ص59.
(4) سورة الأنفال، الآية 53.

﴿دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[2]. فالتدافع أمر فطريّ موجود في أصل خِلْقة الإنسان؛ وهو معنى عامّ جارٍ في جميع شؤون الاجتماع الإنسانيّ. وحقيقة التدافع هي حمل الغير بأيّ وجه أمكن على ما يريده الإنسان، ودفعه عمّا يزاحمه ويمانعه عليه. وهذا معنى عامّ موجود في الحرب والسلم معًا، وفي الشدّة والرخاء، والراحة والعناء جميعًا، وبين جميع الأفراد في جميع شعوب الاجتماع الإنسانيّ وأُممه. نعم إنّما يتنبّه الإنسان له عند ظهور المخالفة ومزاحمة بعض الأفراد بعضهم لبعض في حقوق الحياة، أو في الشهوات والميول ونحوها، فيقوم الإنسان حينها بدفع الشخص المزاحم والممانع له عن حقّه أو عن مشتهاه. ومن موارد جريان سنّة التدافع في المجتمعات: دفع الظلم والباطل عنها وإحياء الحقّ والعدل فيها[3].

3. سنّة النصر:

بيّن القرآن الكريم أنّ النصر سنّة من السنن الإلهيّة الجارية ضمن الاجتماع الإنسانيّ، ولكنْ ضمن شروط معيّنة، يتحقّق النصر عند تحقّقها؛ بمعنى أنّ الله -تعالى- يهيّىء للمؤمنين أسباب النصر المقتضية لظهورهم وغلبتهم على عدوهم؛ كإلقاء الرعب في قلوب الأعداء، وإدارة الدوائر للمؤمنين عليهم، وتشجيع المؤمنين، وتقوية قلوبهم، وربط جأشهم، وتثبيت أقدامهم[4].

(1) سورة البقرة، الآية 251.
(2) سورة الحج، الآية 40.
(3) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج2، ص293-295.
(4) انظر: م.ن، ج18، ص229.

ومن الشروط التي ذكرها القرآن الكريم لتحقّق النصر الإلهيّ:

- **الإيمان الصادق:** ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

- تولّي الله -تعالى- وتولّي أولياءه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[2].

- **الإيمان بأنّ النصر من عند الله -تعالى-:** ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[3]، ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾[4].

- **نصرة الله -تعالى- بإعلاء كلمته ودينه:** ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[5]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[6].

- **تقوى الله -تعالى- وشكره:** ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[7]، ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[8].

- **الصبر على الابتلاء والامتحان الإلهيّ:** ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[9]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[10]، ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[11].

(1) سورة الروم، الآية 47.
(2) سورة المائدة، الآية 59.
(3) سورة آل عمران، الآية 26.
(4) سورة البقرة، الآية 251.
(5) سورة محمد، الآية 7.
(6) سورة الحج، الآية 40.
(7) سورة آل عمران، الآية 123.
(8) سورة الأنفال، الآية 26.
(9) سورة آل عمران، الآية 125.
(10) سورة البقرة، الآية 214.
(11) سورة البقرة، الآية 250.

4. سنّة دمار المجتمعات وانهيارها:

كشف القرآن الكريم عن هذه السنّة التاريخيّة، وعبّر عنها بصيغة قضيّة شرطيّة تربط بين طرفين: الأوّل: حكم الفاسقين للمجتمعات، والثاني: دمار المجتمعات وانهيارها. قال -تعالى-: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾[1]؛ أي إذا دنا وقت هلاك المجتمعات؛ نتيجة كفرانها بالنعمة، وطغيانها بالمعصية، وإعراضها عن الهداية الإلهيّة؛ جرت عليها سنّة الإملاء والاستدراج: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[2]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾[3]؛ حتّى تسترسل في الطغيان، فيُؤمَّر فيها الفسّاق الذين إذا تولّوا سعوا في الأرض؛ فسادًا وإهلاكًا للحرث والنسل: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾[4]؛ فعندها يحقّ القول على هذه المجتمعات وينزل عليها العذاب[5].

5. سنّة وفرة الرزق:

عبّر القرآن الكريم عن هذه السنّة التاريخيّة بقضيّة شرطيّة ربط فيها بين طرفين؛ الأوّل: التقوى الاجتماعيّة؛ وهو الشرط في القضيّة، والثاني: وفرة الرزق؛ وهو النتيجة المُسبَّبة في القضيّة والمترتّبة على حصول الشرط. قال -تعالى-: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[6]. ففي الآية دلالة على أنّ نزول البركات مسبَّب عن إيمان أهل القرى جميعًا وتقواهم؛ أي أنّ ذلك

(1) سورة الإسراء، الآية 16.
(2) سورة آل عمران، الآية 178.
(3) سورة الأعراف، الآيتان 182-183.
(4) سورة البقرة، الآيتان 205-206.
(5) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج13، ص59-60.
(6) سورة الأعراف، الآية 96.

من آثار إيمان النوع الإنسانيّ وتقواه، لا إيمان البعض وتقواه، فإنّ إيمان البعض وتقواه لا ينفكّ عن كفر البعض الآخر وفسقه، ومع ذلك لا يرتفع سبب الفساد: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾[1]. فالحوادث الكونيّة تتبع الأعمال بعض التبعيّة، فجري النوع الإنسانيّ على طاعة الله -سبحانه- وسلوكه الطريق الذي يرتضيه؛ يستتبع نزول الخيرات، وانفتاح أبواب البركات، وانحراف هذا النوع عن صراط العبوديّة، وتماديه في الغيّ والضلالة وفساد النيّات وشناعة الأعمال؛ يُوجِب ظهور الفساد في البرّ والبحر، وهلاك الأمم؛ بظهور الظلم، وارتفاع الأمن، وبروز الحروب، وسائر الشرور الراجعة إلى الإنسان وأعماله، وكذا ظهور المصائب والحوادث الكونيّة المُبيدة؛ كالسيل، والزلزلة، والصاعقة، والطوفان، وغير ذلك[2].

ثانيًا: الشكل الثاني «السنن الإلهيّة الواردة في القرآن بصِيغة قانون علميّ»:

ورد في القرآن الكريم ذِكْر جملة من السنن التاريخيّة الجارية في الاجتماع الإنسانيّ وجرى التعبير عنها بصيغة قضيّة علميّة فعلية ناجزة محقَّقة. وهذا الشكل نجد له أمثلة وشواهد في القوانين الطبيعيّة والكونيّة. فمثلًا: العالم الفلكيّ حينما يصدر حكمًا علميًّا على ضوء قوانين مسارات الفلك بأنّ الشمس سوف تنكسف في اليوم الفلاني، أو أنّ القمر سوف ينخسف في اليوم الفلاني؛ فهذا قانون علميّ وقضيّة علميّة، ولكنّها قضيّة وجوديّة ناجزة، وليست قضيّة شرطيّة، فلا يملك الإنسان تجاهها إرادة تغيير ظروفها، أو تعديل شروطها؛ لأنّها لم تبيّن بصيغة قضيّة شرطيّة، وإنّما بُيِّنت على مستوى القضيّة الفعليّة الوجوديّة، فالشمس سوف تنكسف، والقمر سوف ينخسف، هذه قضية فعليّة تنظر إلى الزمان الآتي وتخبر عن وقوع

(1) سورة الروم، الآية 41.

(2) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج2، ص181-182؛ ج8، ص201؛ ج16، ص195-196؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، م.س، ج10، ص45-46.

هذه الحادثة على أيّ حال، وكذلك القرارات والتوقّعات العلميّة التي تصدر عن الأرصاد الجويّة، والتي تفيد بأنّ المطر ينهمر على المنطقة الفلانيّة، هذا -أيضًا- يعبّر عن قضيّة فعليّة وجوديّة لم تُصَغْ بلُغة القضيّة الشرطيّة؛ وإنّما صِيغت بلغة التنجيز والتحقيق بلحاظ زمان معيّن ومكان معيّن[1].

ومن السنن الواردة في القرآن الكريم على نحو القضيّة العلميّة الفعليّة الناجزة:

1. سنّة الاستخلاف والتمكين:

بيّن القرآن الكريم أنّ استخلاف الإنسان وتمكينه في الأرض هو سنّة تاريخيّة إلهيّة حتميّة لا تقبل التغيير ولا التبديل. قال -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[2]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي﴾[3]، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[4]. فالله -تعالى- أعدّ الأرض وهيّأها لعباده الصالحين خاصّة؛ ليتسلّطوا على منافعها ويتمتّعوا ببركاتها، فهم وإنْ زاحمهم الكافرون فيها وأزاحوهم عنها لوقت ما، لكنّ الله -تعالى- سيجعل لهم مآلًا وموعدًا؛ بحيث تكون الأرض خالصة لهم من دون الكافرين[5].

2. سنّة الابتلاء والامتحان:

بيّن القرآن الكريم جريان هذه السنّة الإلهيّة في الاجتماع الإنسانيّ بصيغة قانون حتميّ لا يقبل التغيير ولا التبديل، ولا يستثنى من هذه السنّة أحد من الناس: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ

(1) انظر: الصدر، المدرسة القرآنيّة، م.س، ص81.
(2) سورة الأنبياء، الآية 105.
(3) سورة النور، الآية 55.
(4) سورة القصص، الآية 5.
(5) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج14، ص330-331.

وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[1]. ويتوقّف على جريان هذه السنّة إيصال النوع الإنسانيّ إلى سعادته وكماله، فالإنسان مخلوق قابل للوصول إلى الكمال؛ بما جهّزه الله -تعالى- في أصل خِلْقته من قوى واستعدادات، لو أُتيحت له فرصة تفتّحها وخروجها إلى حيّز الفعليّة؛ لوَصَل إلى كماله. وسنّة الابتلاء والامتحان تتيح للإنسان هذه الفرصة لأَنْ تتفتّح استعداداته الكماليّة وتظهر: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[2]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3].

ومن الآثار الأخرى التي ذكرها القرآن الكريم؛ بحيث تترتّب على جريان سنّة الابتلاء والامتحان في الاجتماع الإنسانيّ:

تمييز المطيع من العاصي، والصالح من الطالح: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4].

تصفية إيمان المؤمنين من الشوائب وإزالة آثار الشرك وأهله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[5].

إيقاظ الإنسان من غفلته وإرجاعه إلى جادة الصواب: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[6]، ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[7]، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا

(1) سورة البقرة، الآيات 155-157.
(2) سورة الملك، الآية 2.
(3) سورة الكهف، الآية 7.
(4) سورة آل عمران، الآية 140.
(5) سورة آل عمران، الآية 141.
(6) سورة الأعراف، الآية 168.
(7) سورة الأعراف، الآية 130.

تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1].

رفع منزلة الإنسان ودرجته: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ﴾[2]، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[3].

3. سُنّة التفاضل والتمايز:

بيّن القرآن الكريم جريان هذه السنّة الإلهيّة في الاجتماع الإنسانيّ بصيغة قانون حتميّ لا يقبل التبديل ولا التغيير، ولا استمرار للاجتماع الإنسانيّ من دونه؛ فالتفاضل والتمايز يندفع الإنسان إلى غيره بحكم سُنَّة الاستخدام؛ وهي استخدام الإنسان لغيره في قضاء حوائجه، وتحقيق منافعه، ودفع الضرر عنه. ولمّا كان كلّ أفراد الإنسان على هذا الحكم الأوّلي الفطريّ (أي الاستخدام)؛ فإنّهم سوف يضطرون إلى المصالحة والموافقة على التمدّن والعدل الاجتماعيّ؛ بأنْ يخدم كلّ إنسان غيره بمقدار ما يستخدم منه[4]، فيتنازل بعض الناس عن بعض منافعهم لأجل غيرهم، في مقابل حصولهم على منافع أخرى مقابلها، فيقوى الضعيف بالقوي، ويصلح الفاسد بالصالح، ويكمل الناقص بالكامل. وبذلك يكون التفاضل والتمايز عاملًا مهمًّا في امتحان الإنسان واختباره وتفتّح استعداداته الكماليّة، وفي استمرار الاجتماع الإنسانيّ الذي يُعدّ بيئة امتحان الإنسان واختبار.

وربّما كان التفاضل والتمايز بين الناس من جهة المال؛ كالغنى؛ حيث يفضَّل الغني على الفقير بالمال الكثير: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔاۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ

(1) سورة الحديد، الآيتان 22-23.
(2) سورة البقرة، الآية 124.
(3) سورة السجدة، الآية 24.
(4) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج2، ص70.

يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾[1].

وربّما كان التفاضل والتمايز بين الناس من جهة التصرّف والولاية؛ كأنْ يستقلّ بعض الناس بالتصرّف في بعضهم الآخر ويتولّون أمرهم؛ كحكم العبيد بالنسبة إلى مواليهم، وحكم الأولاد الصغار بالنسبة إلى وليّهم[2]: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[3].

وربّما كان التفاضل والتمايز بين الأمم لجهة إيمانها واعتصامها بحبل الله -تعالى- وعدم التفرّق فيه في مقابل الكفر به[4]: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[5]، أو لجهة كون بعض أفراد هذه الأمّة شهداء على أعمال جميع الناس والأمم[6]: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[7].

وربّما كان التفاضل والتمايز بين الناس من الجهة المعنويّة والوجوديّة؛ كاصطفاء الله -تعالى- الأنبياء عليهم السلام والرسل عليهم السلام والأوصياء عليهم السلام وتفضيلهم على العالمين؛ لأجل إيصال الهداية الإلهيّة للناس عبرهم، ولكي يأخذوا بأيدي الناس للوصول إلى الكمال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[8]، ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾[9].

وفي كلّ هذه الوجوه من التفاضل والتمايز ضمان لاستمرار الاجتماع الإنسانيّ وصلاحه وفلاحه.

(1) سورة الكهف، الآيات 32-34.
(2) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج14، ص294-295.
(3) سورة النحل، الآية 71.
(4) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج3، ص376-377.
(5) سورة آل عمران، الآية 110.
(6) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص319-323.
(7) سورة البقرة، الآية 143.
(8) سورة آل عمران، الآيتان 33-34.
(9) سورة البقرة، الآية 153.

4. سُنّة التداول:

كشف القرآن الكريم عن هذه السنّة الإلهيّة الجارية في الاجتماع الإنسانيّ على اختلاف الزمان والمكان؛ وهي سنّة حتميّة لا تقبل التغيير ولا التبديل، ولا تستثني أحدًا من الناس؛ فالكلّ مشمول بها. قال -تعالى-: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]. والمراد بهذه المداولة أنّ السُنَّة الإلهيّة جرت على مداولة الأحداث بين الناس، على اختلاف الأزمان، من غير أن تتوقّف على قوم دون غيرهم؛ وذلك لوجود مصالح عامّة تتبع هذه السُنَّة، لا تحيط بها أفهام الناس؛ إلا ببعضها دون جميعها. ومن الأمور التي يمكن لهم أنْ يحيطوا بها علمًا: إظهار الله -تعالى- إيمان المؤمنين بعد أنْ كان خافيًا، واتّخاذ أفراد من الأمم؛ ليكونوا شهداء على أعمالها عند الله، وتصفية إيمان المؤمنين وتخليصه من الشوائب والنواقص، وإزالة جذور الكفر وآثاره[2].

5. سُنّة آجال الأمم:

بيّن القرآن الكريم وجود آجال للأمم، فضلًا عن وجود آجال لأفرادها. وهذه سنّة إلهيّة حتميّة لا تقبل التغيير ولا التبديل. قال -تعالى-: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[3]، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[4]. ففي هاتين الآيتين الكريمتين أُضيف الأجل إلى الأمّة؛ أي إلى الوجود المجموعيّ للناس، لا إلى هذا الفرد بالذات، أو هذا الفرد بالذات. وهذا يعني أنّ هناك وراء الأجل المحدود المحتوم لكلّ إنسان بوصفه الفرديّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾[5]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا

(1) سورة آل عمران، الآية 140.
(2) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج4، ص28-29.
(3) سورة يونس، الآية 49.
(4) سورة الأعراف، الآية 34.
(5) سورة آل عمران، الآية 185.

فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[1]، أجلٌ آخر وميقات آخر للوجود الاجتماعيّ لهؤلاء الأفراد. هذا المجتمع الذي يعبّر عنه القرآن الكريم بالأمّة. فلهذا المجتمع أجل وموت وحياة وحركة، كما أنّ للفرد أجلًا وموتًا وحياةً وحركةً، وكما أنّ الفرد يتحرّك فيكون حيًّا ثمّ يموت، كذلك الأمّة تكون حيّة ثمّ تموت، وكما أنّ موت الفرد يخضع لأجل ولقانون ولناموس، كذلك الأمم لها آجالها المضبوطة، وهناك نواميس وقوانين تحدّد لكلّ أمّة هذا الأجل. فللتاريخ سنن تتحكَّم به وراء السنن الشخصيّة التي تتحكّم في الأفراد، بهوياتهم الشخصيّة: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾[2]، ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾[3]، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[4]؛ والأجل الذي يُترقَّب أنْ يكون قريبًا أو يهدّد هؤلاء بأنْ يكون قريبًا هو الأجل الجماعيّ، لا الأجل الفرديّ؛ لأنّ قومًا بمجموعهم لا يموتون عادة في وقت واحد؛ وإنّما الجماعة بوجودها المعنويّ الكلّيّ هو الذي يمكن أن يكون قد اقترب أجله. فالأجل الجماعي -هنا- يعبّر عن حالة قائمة بالجماعة، لا عن حالة قائمة بهذا الفرد أو بذاك؛ لأنّ الناس عادة تختلف آجالهم حينما ننظر إليها بالمنظار الفرديّ، لكنْ حينما ننظر إليهم بالمنظار الاجتماعيّ؛ بوصفهم مجموعة واحدة متفاعلة؛ في ظلمها وعدلها، في سرّائها وضرائها، حينئذ يكون لها أجل واحد. فهذا الأجل الجماعيّ المشار إليه؛ إنّما هو أجل الأمّة[5].

(1) سورة الرحمن، الآيتان 26-27.
(2) سورة الحجر، الآيتان 4-5.
(3) سورة المؤمنون، الآية 43.
(4) سورة الأعراف، الآية 185.
(5) انظر: الصدر، المدرسة القرآنيّة، م.س، ص42-43؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، م.س، ج8، ص104-105.

ثالثًا: الشكل الثالث «السنن الإلهيّة الواردة في القرآن بصِيغة قضيّة ذات اتّجاه موضوعيّ»:

ورد في القرآن الكريم ذِكْر جملة من السنن التاريخيّة الجارية في الاجتماع الإنسانيّ وجرى التعبير عنها بصيغة قضيّة ذات اتّجاه موضوعيّ في حركة التاريخ، وهي ليست على نحو السنن السابقة المُصاغة على نحو قانون علميّ؛ لجهة كونها صارمة، لا تقبل التحدّي والمخالفة. فالقانون العلميّ لا يقبل التحدّي من قِبَل الإنسان، ولا يمكن له أن يخالفها أو ينقضها، فمثلًا لا يمكن للإنسان أن يجعل الماء لا يغلي إذا توافرت شروط الغليان، فلا يمكنه أن يتحدّى الغليان وأنْ يؤخِّره ولو للحظة عن موعده المعيّن؛ لأنّ هذا قانون؛ والقانون صارم؛ والصرامة تأبى التحدّي. بينما يمكنه ذلك بالنسبة إلى السنن المُصاغة بنحو الاتّجاه الموضوعيّ؛ فهناك اتّجاهات وسنن موضوعيّة في حركة التاريخ وفي مسار الإنسان لها خاصيّة المرونة؛ بحيث قد تقبل تحدّي الإنسان لها؛ ولو على المدى القصير، ولكنّها لا تقبل ذلك على المدى المتوسّط والبعيد، حيث يتحطّم المتحدِّي حينها بسنن التاريخ نفسها[6].

ومن السنن ذات الاتّجاه الطبيعيّ التي بيّنها القرآن الكريم:

1. سُنَّة ارتباط الإنسان بالدين:

ينظر القرآن الكريم إلى الدين على أنّه سنّة موضوعيّة من سنن التاريخ، فضلًا عن كونه تشريعًا. ولهذا يعرض الدين على شكلين؛ فتارة يبيّنه بوصفه تشريعًا؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾[7].

(6) انظر: الصدر، المدرسة القرآنيّة، م.س، ص84-86.

(7) سورة الشورى، الآية 13.

وتارة يبيّنه بوصفه سنّة من سنن التاريخ واتّجاه موضوعيّ داخلٌ في صميم تركيب الإنسان وتكوينه الفطريّ؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. والدين -هنا- لم يعد مجرّد قرار وتشريع؛ وإنّما هو اتّجاه فطريّ ثابت في خِلْقة الإنسان لا ينفكّ عنه، ولا يتبدّل ولا يتغيّر، ولا يقبل الأخذ والإعطاء[2].

فالدين بذلك هو سنّة لهذا الإنسان، ولكنّه ليس سنّة صارمة؛ كالسنن العلميّة، بحيث لا تقبل التحدّي، بل هو سنّة وفق اتّجاه طبيعيّ يقبل التحدّي على المستوى القصير، ولا يقبل ذلك على المستوى المتوسّط والبعيد. لذا، يمكننا تحدّي هذه السنّة (الدين) عن طريق الإلحاد على المدى القصير، ولكنّ هذا التحدّي لا يكون على المدى المتوسّط والبعيد؛ لأنّ العقاب سوف ينزل بالملحدين، وليس المراد به العقاب الذي ينزل على مَنْ يرتكب مخالفة شرعيّة على يد ملائكة العذاب يوم القيامة، وليس هو ذاك العقاب الذي ينزل على مَنْ يخالف القانون على يد أجهزة الحكم والدولة؛ وإنّما هو العقاب الذي ينزل من سنن التاريخ نفسها؛ بحيث تفرض السُنَّة نفسها العقاب على كلّ أمّة تريد أن تبدّل خلق الله تعالى، ولا تبديل لخلق الله[3]: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[4].

وتجدر الإشارة إلى أنّ المراد من المدى الزمنيّ في السنن التاريخيّة هو بحسب ساحة التاريخ كلّها، وليس فترة زمنية قصيرة. فعندما نقول إنّ هذه السنن التاريخيّة إذا تحدّاها الإنسان فسرعان ما سوف يأخذه العقاب من السنن التاريخيّة نفسها؛ فكلمة سرعان -هنا- يجب أن تؤخذ بمعنى السرعة

(1) سورة الروم، الآية 30.
(2) انظر: الصدر، المدرسة القرآنيّة، م.س، ص87-88؛ الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج7، ص247-248؛ ج16، ص178-179.
(3) انظر: الصدر، المدرسة القرآنيّة، م.س، ص89.
(4) سورة الحج، الآية 47.

التاريخيّة لا السرعة التي نفهمها في حياتنا الاعتياديّة. وهذا ما أرادت أن تبيّنه الآية المتقدّمة. فالآية تتحدّث عن العذاب في سياقه الجماعيّ الذي نزل بالقرى السابقة الظالمة، ثمّ بعد ذلك تتحدّث عن استعجال الناس في أيّام رسول الله ﷺ العذاب وسؤالهم إيّاه عن وقوع هذا العذاب بهم؛ وقد كفروا بدعوتهم وتحدّوه وآذوه؟! ويجيبهم القرآن بأنّه نازل بهم، ولكنْ وفق السرعة التاريخيّة التي تختلف عن السرعة الاعتياديّة التي يطلبون بها العذاب: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[1]؛ لأنّها سُنَّة؛ والسُنَّة التاريخيّة ثابتة؛ واليوم عند الله -تعالى- يختلف عن اليوم الدنيويّ؛ وسنن التاريخ هي كلمات الله[2].

2. سنُّة حبّ الحقّ وبغض الباطل:

هذه السنّة اتّجاه موضوعيّ مفطور عليه الإنسان في أصل خِلْقته؛ بحيث لو خُلِّي وفطرته السليمة لانجذب نحو الخير والحقّ، وأعرض وتنفّر من الشرّ والباطل. وقد أكّد القرآن الكريم على وجود هذا الاتّجاه وهذه السنّة في خلْقة الإنسان: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[3]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[4]؛ فما جعله الله -تعالى- في فطرة الإنسان من حب للإيمان وانجذاب إليه، وكراهة للكفر والفسوق والعصيان؛ هو سبب الهداية والرشد الذي يطلبه بفطرته، ويتنفّر به عن الغي والضلال المقابل له[5]. ولكنّ الإنسان قد يُجري سلوكًا عمليًّا يعارض فيه هذه السنّة على المدى القصير؛ من خلال تولّيه الباطل وأهله وإعراضه عن الحقّ وأهله، ولكنّ هذه السنّة سوف تُحطِّمه على المدى المتوسّط والبعيد؛ فتختم على قلبه، وتعرِّضه

(1) سورة الحج، الآية 47.
(2) انظر: الصدر، المدرسة القرآنيّة، م.س، ص89-90.
(3) سورة العاديات، الآية 8.
(4) سورة الحجرات، الآية 7.
(5) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج18، ص313.

للهلاك والخسران في الدنيا والآخرة: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[1]، ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2]، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[3]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[4].

3. سُنّة الإقبال على الطيّبات والإعراض عن الخبائث:

إنّ هذا الميل والإقبال من الإنسان نحو الطيبات والنفور والإعراض عن الخبائث هو اتّجاه موضوعيّ مركوز في أصل خِلْقته؛ وهو بذلك سنّة إلهيّة جارية فيه، ولكنْ يستطيع الإنسان أنْ يواجه هذا الميل ويعانده ويعارضه على المدى القصير، ولكنّه سوف يتحطّم أمام هذه السنُّة على المدى المتوسّط والبعيد؛ بفقدانه لهويّته وحقيقته الإنسانيّة، وصيرورته كائنًا سفليًّا في صورة إنسان، فارغًا من حقيقة الإنسانيّة العلويّة. وقد أكّد القرآن الكريم على ضرورة سلوك الإنسان وفق مقتضى هذا الاتّجاه؛ لما لذلك من دور وأثر في إيصال الإنسان إلى سعادته وفلاحه. قال -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[5]، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[6]، ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[7]؛ فالطيّبات موافقة لفطرة الإنسان ومنسجمة مع هويته الإنسانيّة العلويّة؛ بخلاف الخبائث،

(1) سورة آل عمران، الآية 28.
(2) سورة البقرة، الآية 7.
(3) سورة الصف، الآية 5.
(4) سورة الأنفال، الآية 13.
(5) سورة البقرة، الآيتان 168-169.
(6) سورة الأعراف، الآية 157.
(7) سورة المائدة، الآية 101.

وحتّى على فرض كثرتها، فلا تجعلها الكثرة في مرتبة الطيّبات؛ لأنّ الخبائث ينفر منها الإنسان بفطرته، ولا تليق بهويّته الإنسانيّة، فلا يُتوقّع من الإنسان العاكف على الخبائث أن يرتقي إلى الكمال والسعادة، بل مصيره ومآله السقوط والتسافل نحو الشقاوة: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾[1].

4. سُنّة ارتباط الرجل بالمرأة بعلاقة الزوجيّة:

وهي ما نجده في تركيب الإنسان وتكوينه الفيزيولوجيّ من اتّجاه لإقامة العلاقات المعيّنة بين الذكر والأنثى في المجتمع الإنسانيّ، ضمن إطار من أطر النكاح والاتّصال بين الجنسين. فهذا الاتّجاه ليس اتّجاهًا تشريعيًّا؛ وإنّما هو اتّجاه موضوعيّ أُعملت العناية في سبيل تكوينه في مسار حركة الإنسان، فلا نستطيع أن نقول إنّ هذا مجرّد قانون تشريعيّ، أو مجرّد حكم شرعيّ، بل هو اتّجاه رُكِّب في طبيعة الإنسان وتكوينه الفيزيولوجيّ؛ وهو الاتّصال بين الذكر والأنثى، وإدامة النسل الإنسانيّ عن طريق هذا الاتّصال، ضمن إطار من أطر الارتباط الاجتماعيّ. فهذه سنّة، ولكنّها سنّة على مستوى الاتّجاه، لا على مستوى القانون؛ لأنّ التحدّي لهذه السنّة لحظة أو لحظات أمر ممكن، فقد أمكن لقوم لوط أن يتحدّوا هذه السنّة فترة من الزمن على المدى القصير: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾[2]، ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾[3]، ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٥٤ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾[4]، ولكنّهم تحطّموا أمام هذه السُنَّة بعد استرسالهم في مخالفتها وتحدّيها

(1) سورة الأعراف، الآية 58.
(2) سورة الأعراف، الآيتان 80-81.
(3) سورة الشعراء، الآيتان 165-166.
(4) سورة النمل، الآيتان 54-55.

على المدى المتوسّط والبعيد[1]: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾[2]، ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾[3].

5. سنّة توزيع ميادين العمل بين الرجل والمرأة:

فهذا التوزيع للوظائف والأعمال الاجتماعيّة بين الرجل والمرأة هو سنّة إلهيّة ذات اتّجاه موضوعيّ، وليس اتّجاهًا ناشئًا من قرار تشريعيّ، بل هو اتّجاه رُكِّب في طبيعة كلّ من الرجل والمرأة، ولكنّه يقبل التحدّي على المدى القصير، فيمكن إصدار تشريع يفرض على الرجل بأنْ يبقى في البيت؛ ليتولّى دور الحضانة والتربية، وأنْ تخرج المرأة إلى خارج البيت؛ لكي تتولّى مشاقّ العمل والجهد. فهذا الأمر بالإمكان أن يتحقّق عن طريق تشريع معيّن؛ وبهذا يحصل التحدّي لهذا الاتّجاه على المدى القصير، لكنّ هذا التحدّي سوف لن يستمرّ على المدى المتوسّط والبعيد؛ لأنّ سنن التاريخ سوف تواجه المتحدّي بخسران كلّ تلك القابليّات التي زُوِّدت بها المرأة في خلقتها وتكوينها؛ لممارسة دور الحضانة والأمومة، وخسران كلّ تلك القابليّات التي زُوِّد بها الرجل في خلقته وتكوينه؛ لأجل ممارسة يتطلّب القوّة والجَلَد والصبر والثبات وطول النفس[4]. ولأجل ذلك أكّد القرآن الكريم على تحديد ميادين عمل كلّ من الرجل والمرأة في المجتمع؛ بحيث يتناسب عمل كلّ منهما على ما جهّزهما الله -تعالى- به من خصائص ومميّزات: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ...﴾[5]، ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾[6]، ولا ينافي ذلك نظره إليهما بالتساوي؛ من حيث الإنسانيّة والكرامة عنده -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(1) انظر: الصدر، المدرسة القرآنيّة، م.س، ص85-86.
(2) سورة العنكبوت، الآية 31.
(3) سورة العنكبوت، الآية 34.
(4) انظر: الصدر، المدرسة القرآنيّة، م.س، ص86-87.
(5) سورة النساء، الآية 34.
(6) سورة البقرة، الآية 228.

ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1]، ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾[2]، ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾[3]، فقد عَهِدَ الله -تعالى- إلى الرجل بالنفقة والجهاد والقضاء والحكم؛ لأنّ كلّ واحدة من هذه الوظائف تحتاج إلى القوّة والصبر والحزم، ويمكن للعاطفة واللين والشفقة أن ترجع بآثار سلبيّة عكسيّة في هذه الأمور: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧ أَوَ مَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾[4]، بينما عَهِدَ إلى المرأة تربية الأسرة وتعليمها وتعهّدها بالرعاية؛ وبالتالي بناء نواة المجتمع الصالح؛ لأنّ هذه الوظيفة تحتاج إلى عاطفة جيّاشة وحنان ورأفة ولين، ويمكن للقوّة والحزم وتحكيم العقلانية في استجابة مطالب الطفولة أن ترجع بآثار سلبيّة عكسيّة في مجال تربية الأسرة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ قيام المرأة بهذه الوظيفة الجليلة؛ وهي تربية الأسرة، ليس فيه انتقاص من قدرها ومنزلتها، بل هي استمرار لعطائها الجسديّ بالحمل والإرضاع، بعطاء نفسيّ وعاطفيّ وفكريّ، يتمّم العطاء الأوّل ويتناسق ويتناغم معه، بحيث لا ينفكّ أحدهما عن الآخر؛ ليثمر العطاءان نواة المجتمع الإنسانيّ الصالح.

(1) سورة الحجرات، الآية 13.
(2) سورة النساء، الآية 32.
(3) سورة البقرة، الآية 228.
(4) سورة الزخرف، الآيات 16-18.

خاتمة:

إنّ التاريخ والاجتماع الإنسانيّ محكوم بسنن إلهيّة لا تتبدّل ولا تتغيّر، جارية ومستمرّة بين الناس، لا تستثني أحدًا منهم. وهذه السنن مؤطَّرة بقوانين واتّجاهات موضوعيّة حاكمة على حركة التاريخ والاجتماع الإنسانيّ؛ عبّر عنها القرآن الكريم بأشكال وصِيَغ متعدّدة؛ فتارة عبَّر عنها بصيغة قضيّة شرطيّة مكوّنة من طرفين يرتبطان بعلاقة شرطيّة يتحقّق بموجبها الطرف الثاني عند تحقّق الطرف الأوّل؛ كما في سنن التغيير، والتدافع، والنصر، ودمار المجتمعات وانهيارها، ووفرة الرزق، ...، وتارة أخرى عبَّر عنها بصيغة قضيّة علميّة حتميّة ثابتة لا تتخلَّف ولا تختلف؛ كما في سنن الاستخلاف، والتمكين، والابتلاء والامتحان، والتفاضل والتمايز، والتداول، وآجال الأمم، ...، وتارة ثالثة عَبَّر عنها بصيغة قضيّة ذي اتّجاه طبيعيّ قد تقبل مخالفة الإنسان لها على المدى القصير، ولكنّها حتميّة وقاهرة له في حال استمراره في مخالفتها على المدى المتوسّط والبعيد؛ كما في سنن ارتباط الإنسان بالدين، وحبّ الحقّ وبغض الباطل، والإقبال على الطيّبات والإعراض عن الخبائث، والارتباط بين الرجل والمرأة بعلاقة الزوجيّة، وتوزيع ميادين العمل بين الرجل والمرأة، ...

وبناءً عليه، فقد باتت القراءة السننيّة والوعي بها مطلبًا ضروريًّا، ولا سيّما في ما يتعلّق بأشكال السنن الاجتماعيّة التي طرحها القرآن الكريم بأساليب مختلفة وصِيَغ وتعابير متعدّدة؛ بوصفها مدخلًا منهجيًّا في القراءة السننيّة الواعية والفاعلة للاجتماع والتاريخ، وفي فهم التاريخ والواقع واستشراف المستقبل على هدي الوعي السننيّ.